OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

النزعة القصصية في الرحلات الحجازية (دراسة وصفية)

Narrative Tendency in Hijazi Travelodge (A Descriptive Study)

۞ د.حافظ محمد بادشاه
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية الجامعة الوطنية للغات الحديثة
۞۞ د. مكية نبي بخش
الجامعة الإسلامية، بهاول بور

ABSTRACT

The story is a form of human expression that is very likable to the soul, and it manifests the various attitudes and emotions, by recounting a particular incident, in a manner that attracts people in their deliberations and conversations.

The story is not new in our Literature, the Arabs in Pre Islamic Period were commonly using it in their councils and in their spare time, such as refereeing for their wars and heroism, infect these stories were aimless and purposeless, as they were only for spare time. And they narrate them on different themes & topics.

After the emergence and spread of Islam, the story became purposeful and aim full. The first aim was to take good ethical lessons from these stories especially of old and previous nations, for examples stories of the Allah's Prophets, or unjust kings like Pharaoh, Qarun, and Shaddad And the story of Joseph peace be upon him from which we take love and innocence, and stories of Paradise and hell, and stories of the owners of hells.

Since then, they benefit writers with different types of stories in their literary products such as trips and speeches. Among them were the nomadic writers who have made the story a method and a way to express their feelings and emotions and accidents witnessed in their journeys.

In this brief research I will talk about the storytelling style in the Hijazi trips such as Ibn Jubayr, Ibn al-Abdari, Ibn Battuta's trip to Hijaz and other ancient and modern journeys. The research is divided into the following main points:

- Methodology of Hijaz trips
- The narrative tendency in the Hijazi trips
- Conclusions and recommendations

Keywords: *Travelling, Storytelling, Ibn Jubayr, Ibn al-Abdari, Ibn Battuta's Journey & Trips, witness, emotions.*

إن القصة شكل من أشكال التعبير الإنساني محبب إلى النفس كثيراً، وتتجلى فيه شتى النوازع والعواطف، من خلال سرد حادثة معينة، بأسلوب يجذب الناس في أسمارهم وأحاديثهم.

والقصة ليست جديدة في أدبنا، بل العرب في عصر الجاهلية يحكون ويتسامرون به في مجالسهم وفي وقت فراغهم، كذكر حروبهم وما كان بها من بطولات، ولكن ليست لهذا القصص هدف ولا غاية بل فقط يحكون مكث الوقت الفارغ. ويحكون في موضوعات مختلفة.

وبعد ظهور الإسلام وانتشاره أصبحت القصة غاية وهدفاً ومقصداً وأول غايته للقصة هي العبرة أن يأخذ المسلمون العبرة من أمم السابقة، ويأخذ الإصلاح الأخلاقي، وفيه قصص الأنبياء وقصص للملوك الظالمين مثل فرعون وقارون وشداد . وقصة يوسف عليه السلام التي نأخذ منها الحب والطهارة، وقصص عن الجنة والنار، وقصص عن أصحاب النار.

ومنذ ذلك يستفيدون الأدباء بأنواع قصصية في منتاجهم الأدبية كالرحلات والخطب ومن هؤلاء الأدباء الرحالين الذين جعلوا القصة منهجاً وأسلوبا لتعبير مشاعرهم وعواطفهم والحوادث المشهودة في رحلاتهم.

وفي هذا البحث الموجز سأتحدث عن الصور القصصية في الرحلات الحجازية كرحلة ابن جبير ورحلة ابن العبدري و رحلة ابن بطوطة إلى الحجاز وغير ذلك من الرحلات القديمة والحديثة. وقد قسمت البحث إلى النقاط التالية:

- منهجية الرحلات الحجازية
- النزعة القصصية في الرحلات الحجازية
- النتائج والتوصيات

منهجية الرحلات الحجازية

الرحلة فن من فنون الأدب العربي، يختلف عن سائر الفنون الأدبية ويتفق معها في آن، ذلك أن هذا الأدب يعد "نمطاً من أنماط الأدب وفناً من فنون القول الأدبي، تتجمع فيه أساليب القصة والمسرحية والمقالة الأدبية، دون أن يخضع لمعاييرها، ومقاييسها التي قررها الأدباء والنقاد" [1] إذ هو ملزم باستثمار المعطى الفن وفق ضوابط معينة، فإذا كان الخيال مثلاً يسهم في إيجاد وإثراء فنون أدبية كالقصة والرواية فإن نطاقه في "أدب الرحلة" محدد في تلوين المشاهد والحوادث، لا خلقها، أو تزييفها، ولذا تتحدد وظيفة الخيال في "أدب الرحلة" وهي وظيفة لها أهميتها، ولها خطورتها أيضاً حين تتجاوز الحقيقة أيا كانت هذه الحقيقة الرحلية سواء في الحدث أو المشاهد، ولم يتجاوز الرحالة هذه الرواية، فقد استطاعوا أن يوظفوا هذا الخيال في دائرة متطلبات هذا الفن الأدبي. وطبعي أن الرحالة ـ أيا كان ـ يواجه

في ارتحاله مشاهد وحوادث متنوعة، مما يدعوه التسجيل والنقل، ومن هناك كان الرحالة يتجه إل الصورة لتقديم مشاهده، وإلى القصة في سرد الحوادث التي كان طرفاً فيها، أو شاهدها.

وانطلاقا من هذا فإن كثيراً من الرحالة قد اشتركوا في الاستعانة بالصورة أداة فنية تسهم في نقل المشاهد، والحوادث، وقد أفادوا منها سواء على الطريقة البلاغية المعتمدة على التشبيه، والمجاز والكناية أو كانت وصفية سردية لا تعتمد على الألوان البلاغية. (2)

الصورة الفنية

لا شك أن الصورة الفنية من أهم ركائز الأسلوب الأدبي في الشعر والنثر على حد سواء، ذلك أن الصورة تجسيد فني لقدرة الأديب الخيالية على إيجاد العلاقات بين الأشياء، ذلك أن الصورة تجسيد فني لقدرة الأديب الخيالية على إيجاد العلاقات بين الأشياء، وتقديمها في لوحة فنية تستحث المتلقي على التحليق في أجوائها، وتدعوه للاستمتاع والدهشة ! .

ورغم الاتساع الكبير الذي بلغه الحقل الدلالي لكلمة "صورة " فعندما يغوص الباحث في فهمها، يضيع بين المفاهيم المتنوعة، لا بل المتناقضة أحياناً كثيرة"(3) ورغم أن من الباحثين "من يرى أن النثر فن الوصف التحليلي الذي لا يحتاج إلى الإدراك الاستعاري حاجة الشعر" (4) إلا أن كل ذلك لن يمنع الباحث من البحث والتنقيب عن الصورة جميلة التي تؤكد غنى النثر الأدبي، وقدرته على توظيف الصورة توظيفاً فاعلاً في سياق العمل الأدبي، وبخاصة في سياق أدب الرحلة، الذي يتطلب من الرحالة الأديب قدراً كبيراً من القدرة عل بتوظيف خياله في صياغة المشاهد، صياغة لا تبتعد عن الواقع أو تزيفه! بقدر ما تمنحه شحنات خيالية ذاتية .

وإذا تحدثنا عن الرحلات الحجازية فعلي أن أشير إلى هؤلاء الرحالة الذين مختلفون بل متفاوتون في قدراتهم على توظيف الصورة الأدبية في أعمالهم الرحلية. قدرة على تركيز وتكثيف الصورة من جهة، ورصد تفاصيلها وخطوطها من جهة أخرى، وبثها مشاعر وآهات الذات من جهة ثالثة.

إن الرحلات الحجازية ــ كرحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن رشيد وغيرها ــ من النماذج النوعية في هذا الفن في الأدب العربي، فإن تزاحم عنصر كتابة الرحلة، وتعدد مجالات إنتاجه لم يَخْلُ من ميزته النوعية أيضا، مما يقوم شاهداً على إنتاج العصر لهذا الصنف من التأليف وازدهار كتابته. فقد تمثل العديد من أصناف كتابة الرحلة فيه، بما تيسر لأصحابها الراحلين من العلماء والأدباء من رغبة في العرض والتسجيل، وما تهيأ لهم خلال ذلك من قدرات في الكتابة، وصياغة ما شاهدوه وصادفوه من ظروف جديدة أثناء الرحلة، وما رافقها في حالتي السفر والإقامة، فيمثل الوصف الكامل والعرض المثير لمراحل الرحلة، مما ينتج عنه هذا الصنف من الكتابة. سواء أكانت رحلات طويلة، مثل الرحلات التي استهدفت خارج الوطن، وبخاصة لأداء فريضة الحج وتأدية مناسكه

وزيارة المعالم المقدسة، وإما لقضاء مهمة سفارية في أحد البلاد المجاورة وغيرها أو رحلات محدودة، وبخاصة الرحلات داخل الوطن .

والرحلة الحجازية وإن تباعدت أشكالها، وتنوعت أحجامها ونصوصها، تبقى رهينة مجموعة من الثوابت، لتعطيها صفة الانتماء إلى صنف الرحلة الحجازية، بمميزاته وخصوصيته، ولتتمثل بها تلك القواسم المشتركة التي تلتقي بها هذه الرحلة مع مثيلتها في الصنف، رغم تباعد زمنها، وتباين اهتمامات الكاتب لها، وتفاوت طريقة الكتابة والقدرة على الصياغة الأدبية فيها.

كما ذكرت أن الرحالين دونوا رحلاتهم بأساليبهم ومناهجهم الخاصة، فبعضهم اختاروا أسلوب الروية وبعضهم اختاروا أسلوب القصة، وبعضهم اختاروا أسلوب نقل الأخبار، وهكذا بعض الرحلات أدبية وعلمية وبعض الرحلات بلغة محلية.

رغم تلك الأسلوب المتنوعة الهدف الرئيسي للرحلة هو نقل الأخبار عن البلد المشهود إلى القاري بطريقة جيدة وبرسم بارع وصور بديع لكي يتمتع القاري من قراءة الرحلة ولا يتعب .

النزعة القصصية في الرحلات الحجازية

إن وجود النزعة القصصية في أدب الرحلة أمر طبيعي للرحلة، وما يتخللها من حوادث ومواقف تستحث الرحالة على التسجيل، وصياغة هذه الحوادث في أسلوب قصصي يعتمد الإثارة والتشويق في كثير من الأحيان، والرحلة في حد ذاتها قصة إن لم تتوافر فيها خصائص القصة، فهي تشاركها في بعض خواصها، فهي تظل على حد تعبير أحد الرحالة: "قصة ارتحال تظل لها حلاوة القصة ... وإن لم يكن لها طابعها".

ولذلك فإن عددا من الرحالة قد وفقوا في عرض بعض المواقف والحوادث في صورة قصصية تميزت بصدقها، إذ لم يكن للخيال دور في إيجاد شخوصها، أو خلق حوادثها بل كان دوره فقط في محاولة اختيار الطريقة والأسلوب الملائم للعرض القصصي.

ولذا فإن وجود هذه النزعة القصصية قد أسهم كثيراً في هذا اللون الأدبي الرحلي قديما وحديثاً، ومن هنا كان الرحالة الذين يوفقون في رحلته إلى المرور والاحتكاك المباشر بهذه المواقف مؤهلاً في ظل وجود القدرة الأدبية لإثراء أعمالهم الرحلي وتألفهم إذا وفقوا في عرض هذه الحوادث واستثمارها استثماراً فنياً من جهة، والتزام الواقع، وعدم اصطناع الأحداث وافتعال التشابك.

ومع ذلك فإن الرحالة يملكون مساحة واسعة تمكنهم من التدخل المباشر الذي لا يؤثر على مصداقية هذه المواقف، بقدر ما يمنحها مشاعر مختلفة من الحزن أو الطرافة على سبيل المثال.

وقد يكون الموقف عصبياً في مجمله، بيد أن الرحالة يتدخل ليقدم هذا الموقف المتأزم في صورة طريفة، حتى ليستطيع تقديم القصة من خلال عنصري الجد والهزل معاً، فلا يسعك إلا أن تقرأ القصة مشدوداً ومتحفزاً تارة، ومستأنساً ضاحكاً تارة أخرى.

إن أبرز ما يميز أدب الرحلات هو تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، ولكن أبرزه أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدِّمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر" (5)

ونرى الرحاليين والجغرافيين في رحلاتهم وكتبهم الذين سلكوا طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، واهتموا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار وعجائب وقصّوا ما عندهم من أساطير وخرافات، واعتمدوا على المشاهدة والحكاية. وغلب على هذه الكتب الطابع القصصي ولما نقرأ الرحلات فنجد لذة في قرأتها .

وإذا أمعنا النظر في رحلة ابن جبير فنجده حاكياً قصة ما شاهده في طريقه إلى حجّه وعودته منه ، وإذا قرأت رحلة ابن بطوطة فهي مليئة بالحكايات والمازني وحسين هيكل يحكي لنا حكايات مضيفهما بشكل جيد.

وفي هذا المكان أبين كيفية القصة في الرحلات الحجازية مع ذكر النماذج من القصص الواردة في تلك الرحلات.

أولاً رحلة ابن جبير

كان أسلوب ابن جبير في رحلته قصصي وروائي وبطل قصته هو بنفسه، وقد يذكر أحداث وواقعات الرحلة بعنوان المشهد أو المشاهد، واخترت أنموذجاً من رحلته لنعرف أسلوب الرحلة، ففي بداية الرحلة تحدث ابن جبير أهوال البحر ومصائبه، وعقب يحكي قصة ذكرياته حيث قال:

"ثم إنا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور، وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد. وهبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومي مع جملة من الروم أقرب المواضع المعمورة منا فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجال ونساء يباعون في السوق. وكان ذلك عند وصول العدو، دمره الله، بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين، والله يتداركهم برحمته.ووصل المرسى المذكور، يوم الجمعة

الثالث من يوم أرسينا فيه، سلطان الجزيرة المذكورة، مع جملة من الخيل.فنزل إليه أشياخ المركب من الروم واجتمعوا به، وطال مقامهم عنده، ثم انصرفوا وانصرف موضع سكناه. وتركنا المركب المذكور في موضع إرسائه، بسبب مغيب بعض أصحابه في البلد، عند هبوب الريح الموافقة لنا." (6)

ويحكي لنا ابن جبير يومياته في الإسكندرية بأسلوب روائي وقصصي جميل حيث يسرد :"فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أُمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلبَ فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضّ[7] ليؤدّي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم، فلزموا أداء زكاة ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب .."[8]

ويحكي قصة دخوله في مكة المكرمة حيث قال:

"ودخلنا مكة، حرسها الله، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، وهو الرابع من شهر أعشت، على باب العمرة، وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تَصُكُّ الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية.فيما لها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر[9]، فهي عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر. أن وصلنا، في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم ومبوأ الخليل إبراهيم. فألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوّة مزفوفة جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم، وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة. ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له"[10]

ثانياً: رحلة العبدري

إن العبدري اختار أسلوب القصة والرواية بالإضافة إلى ذلك أنه يورد بشكل قصة والرواية والتاريخ الإسلامي ، كما قال عن مقام إبراهيم:"والمقام حجرٌ فيه أثر قدمي إبراهيم ■ ، وقف عليه وهو يبني الكعبة، فساخت فيه قدماه، وقيل: كان كلما ارتفع البناء، ارتفع به المقام في الهواء حتى تم البيت، وقيل : إنما وقف عليه حين أذّن في الناس بالحج فتطاول حتى علا الجبال، وأشرف على ما تحته، فنادى: أيها الناس أجيبوا ربكم، وقيل غير هذا مما هو مسطور، والأول هو الصحيح حسبما يأتي ذكره من حديث البخاري. وسأل أبو سعيد الخدري عبدالله بن سلام & عن الأثر الذي في المقام فقال: كانت الحجارة على ما هي عليه الآن، إلا أن الله تعالى أن يجعل المقام آية من آياته. وتقدم قول

قتادة : " ذكر لنا بعض من رأى أثره وأصابعه."[11]

ويسرد حكاية جهل الحجاج عن قبة زمزم ، حيث قال:

"ولم أدخل قُبَّةَ زمزَم لكثْرةِ الازدحام، ولا ضاغطت في دخولها، لما كنتُ عزمتُ عليه من الإقامةِ، فأملتُ التشفي منها ومن غيرِها في وقت الفراغِ وخفةِ الزِّحام، وقدرتُ ما جرى القدرُ بغيره، وليس إلا ما شاء الله . وقد وقفتُ عليها مراراً، فلم أجدْ مدخلاً من كثرةِ الخلقِ، وإفراط الزِّحام، والذي يكونُ بها وبغيرها من المضايقة، والمدافعة، وتكلُّفِ ما لم يردْ به شرعٌ، وتقوّل ما ليس له أصل، أمرٌ يضيقُ عنه الوصفُ، وقديماً شُكي بذلك، قال قتادة في قوله ﷻ :

﴿ واتخِذُوْا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى﴾ [12] ، إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يُؤمرا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها." [13]

ثالثا: رحلة ابن بطوطة

أشار محقق رحلة ابن بطوطة الدكتور حسين مؤنس " وهذا على وجه التحديد هو الوصف الدقيق لهذه الرحلة : إنها "تقرير " عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع الميلادي، وهذا التقرير تعوّد القارئ العربي أن يقرأه على أنه قصة ممتعة، أو رحلة سندبادية حافلة بالغرائب"[14].

وقد كرر كلامه في مكان آخر حيث قال عن رحلة ابن بطوطة :

" فرحلة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدي الناس، وهي قصة جميلة تُقرأ في لذة واستمتاع، لأنها في صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف" [15]

فمعنى كلام حسين مؤنس أن أسلوب رحلة ابن بطوطة هو أسلوب قصصي رائع ، ونرى هذا الأسلوب طول رحلته، ومن النماذج التي اخترت من رحلته سأقدم النص الأول الذي يسرد لنا فيه قصة الذهاب من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، حيث قال :

" ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم. ويقال: إن علياً ■ قاتل بها الجن. ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء. وهو وادٍ معمور، فيه ماء ونخل وبنيان، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم، وفيها حصن كبير، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة. ثم رحلنا منه، ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ، وأنجز وعده الكريم، واستأصل صناديد المشركين. وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة، و بها حصن منيع يدخل إليها من بطن وادٍ بين جبال ووهاد. وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع القليب الذي سبح به أعداء الله المشركون. هو اليوم بستان. وموضع الشهداء ﷺ

خلفه. وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء، وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد. ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله ﷺ الذي كان به يوم بدر، يناشد ربه جلّ وتعالى، متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الواقعة أمامه، وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة رسول الله ﷺ . وبين بدر والصفراء نحو بريد في وادٍ بين جبال تطرف فيه العيون، وتتصل حدائق النخل"(16)

والأنموذج الثاني الذي اخترت من رحلته يسرد فيه حكاية فتْحُ باب الكعبة المشرفة ويصف الكعبة بداخلها، حيث قال:

" ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد النبي ﷺ ورسمهم في فتحة أن يضعوا كرسياً شبه المنبر، له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلاً بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، خلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبَّل العتبة الشريفة، ودخل البيت وحده، وسد الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل سائر الشيبيين، ويسدون الباب أيضاً ويركعون، ثم يفتح الباب، ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيدٍ مبسوطة إلى الله، فإذا فتح كبروا ونادوا: "اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين" وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك... " (17)

رابعاً: الرحلة الحجازية لشكيب أرسلان

كما ذكرت أن أسلوب الرحلة الحجازية أسلوب أدبي رائع بالإضافة إلى ذلك أسلوبها يميل إلى القصة ورواية وهذا الشيء يثبت من النص التالي الذي حكي فيه سفر الباخرة حيث قال:

"قضيت العجب من هذا المنظر وقلت : إن مثل هذا الميناء لا تمله النواظر، ولا تشبهه المناظر، مهما كانت نواضر، ثم سألت ربان الباخرة، . وهي من البواخر الهندية ربانها إنكليزي. عما إذا كان رأى هذا المنظر في بحر آخر وقلت له: إني جلت كثيرا في الدنيا، ورأيت أحبراً وبحيرات وأنهاراً لا تحصى، ولم أعهد مسرح لمحة على سطح الماء يحاكي في البهاء هذا الميناء، فما قولك أنت؟ قال لي : مهما يكن من سيرك في الأرض ومعرفتك للبحار فلا تعرف منها جزءاً مما أعرف، وأن أقول لك إني لا أعهد هذه المناظر البديعة إلا لهذا الميناء وحده. " (18)

ويسرد قصة لقاء مع الملك ابن السعود حيث قال:

" ثم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه، والعاهل الصنديد الأنجد الذي كأنما قدَّ ثوب استقلال العرب الحقيقي على قدِّه، فحمدت الله على أن عيني رأت فوق ما أذني سمعت، وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الأمة. " (19)

خامسًا: في منزل الوحي لحسين هيكل

ونجد في رحلة حسين هيكل أسلوب القصة والرواية والحوار ومن أمثلة أسلوب القصة أقدم القصة التي تسرد لنا فيها لقاء ابن سعود في قصره فها هو يقول:

"وقد ذهبت إلى قصره يوم دعيت لمقابلته غداة وصولي مكة وفي نفسي منه صورة غيرة واضحة المعالم لا تستبين فيها قسمات محيّاه ولا جلسته أو وقفته. ونزلت من السيارة أمام باب القصر، فتخطيته إلى حديقة غرست فيها نباتات صغيرة وأزهار، ورفعت طرفي فإذا أمامي درج فسيح لم أكد أثبت نظرتي فيه حتى التفت الذي يتقدمني إلى اليمين. وسرت وراءه، فتخطينا بابًا استدرتُ عنده في دهليز فرش بالحصباء، ثم ألفيت إيواناً أشار مضيفي على أن أدخله، وتلقاني وزير المالية على بابه، وأردت أن أُسرِح بصري في المكان المفروش بالسجاد كي أجتلي منه صورة كاملة، لكن وزير المالية التفت إلى الناحية المقابلة للباب، فالتفت معه فألفيت رجلا ضخم الجلسة على مصطبة مفروشة بالسجاد وقد لبس عباءة . أو مسلحاً على التعبير الحجازي . من الصوف البني اللون، واعتجر بصمادة مخططة بالأحمر والأبيض من فوقها عِقال مذهب. وتقدم الشيخ عبدالله السليمان فأسرّ له شيئاً، وتقدّم من ورائه الشيخ عباس قطان، ثم تأخرا وتقدّمتُ، فوقف عاهل العرب ومد إليّ يده الضخمة فحيّاني وأشار إلى مقعد بجانبه فجلس وجلست، وانصرف الرجلان، وبدأ جلالته الحديث بقوله:

لمْ أقابلك من قبل ولكنني أعرفك.

واغتبطت لهذه التحية الرقيقة التي لم تكن تتفق مع ما يبدو على وجه الرجل في هذه اللحظة من اشتغال باله، وأجبت :

جئت أقدّم التحية وأعرض الرجاء في تعاون المسلمين لرفعة هذه الأماكن المقدسة . " (20)

وحسين هيكل يحكي قصة الذهاب إلى الطائف حيث قال:

" لم يعترض أحد من الحاضرين على هذا الكلام فملت إلى تصديقه، وكان لي بزيارة الطائف شغف، ففيها من أثر الرسول ﷺ قبيل هجرته وفي أعقاب غزوة حنين ما يدعو إلى زيارتها. لكني تصورت ركوب الدواب في صعود الجبال فذكرت يوماً من سنة 1924 فيه بلبناب وصعدت فيه إلى الأرز مع رفاق كثيرين. ولم تكن طريق الأرز قد عبِّدت للسيارات حينذاك، فاكترينا الدواب

من بلدة (بشري) وامتطينا لتصعد بنا في طريق فيه سعة ونظام. مع ذلك بقيت أذكر ذلك اليوم والصعود على الدواب فيه فتمتلئ نفسي من صعودها مخافة ورهبة . فهي تأبى إلا أن تسير على حافة الطريق المتصلة بالهاوية حتى ليشعر الإنسان أن موف في كل خطوة على حتفة. وعبثاً يحاول الإنسان أن يلزمها السير في منتصف الطريق فإنها لا تلبث أن تعود إلى حافتها وتلزمها."[21]

ويستمر في قصة الذهاب إلى الطائف ثم يحكي عن لقاء فلبي في منزله حيث قال:

" و في صباح يوم الاثنين زرت فلبى بمنزله على موعد بيننا، وأفضيت إليه بأنني ذاهب على الطائف بعد الظهر، ويقع منزل فلبى بحي جرول في أطراف مكة فوق ربوة يسيرة الارتفاع، وقفت السيارة أمام بابه فصعدنا درجة كان من الخير أن تكون درجتين أو ثلاثاً. وتخطينا الباب إلى حديقة تبدو أشجارها الباسقة من فوق السور ولا تحجب الدار القائمة بعدها. وليس الحديقة بالفسيحة ولا بالضيقة، تتراوح مساحتها بين المائة والخمسين والمائتين من الأمتار المربعة. وهي أدنى إلى أن تكون مهملة قلّ أن تمتد إليها يد التنظيم، لكنها مع ذلك متعة للنظر في مكة حيث لا تقع العين على حديقة إلا في الدور التي تشبه القصور." [22]ويسرد محمد حسين هيكل قصة مكر وعناد اليهود مع المسلمين وأشار إلى تلك القصة التي هي سبب لمحاصرة بني قينقاع خمسة عشر يوم ، حيث قال:

" أرادوا امرأة مسلمة جاءت سوقهم تصلح حِلية لها عند صائغ منهم على كشف وجهها فأبت . وجاء يهودي من خلفها على غِرَّة منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت، إذ ذاك وثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، وأراد رسول الله حسم الشر فطلب إلى اليهود أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة الذي عقده معهم أو ينزل بهم ما نزل بقريش. وكان جواب بني قينقاع: " لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس"[23]

سادساً: رحلة إلى الحجاز للمازني

قام عبدالقادر المازني في رحلته بأسلوب قصصي وحواري، وكان المازني يصف الأماكن بسرد قصصي، كما وصف لنا قرية ينبع بأسلوب قصصي حيث قال:

" وركبنا زورقاً إلى المدينة، وهي صغيرة فقيرة، وبها مساجد كثيرة، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم، وليس فيها زرع ولا ضرع، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها " الكندنسة" ويه لفظة محرفة عن " الكوندنسر"[24]، فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها، وكان عاملاً عليها في عهد الحسين لم تنحه الحكومة وهي أبسط ما تكون:

بضعة مكاتب في الدور الأرضي، وفي الدور الذي فوقه غرفتان إحداهما للقائمقام، وفيها مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر، وفي الأخرى مكتبا صغيران" (25)

واستمر في سرد حكاية رحلته حيث قال:

"ولم يكن في الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة، وكان الطريق غاصاً بالأطفال يمشون وراءنا ويحفون بنا في خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئاً، فتساءلت: ماذا يحمي هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء؟ فقيل لي إنه لا خوف منهم لأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق شيئاً ، وبلغنا آخر السوق حيث المسجد، وكان الناس قد فرغوا من الصلاة فوقف رجل أمام كوم من الكلأ وقطع من الحصير وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد، وكل ما أمامه لا يساوي ريالاً. " (26)

النتائج والتوصيات

وبعد هذا الوصف الموجز للنزعة القصصية في الرحلات الحجازية أذكر بعض النتائج والتوصيات المهمة وهي:

1. إن الرحلات الحجازية من أهم الرحلات التي دونت في أزمنة مختلفة بحيث تتمتع القارئ وتتشوّق بالذهاب إلى الحجاز لرؤية تلك البلاد المقدسة .
2. تعتبر الرحلات الحجازية من أهم الكتب التي أشارت إلى الجانب العلمي، فقد كشف الرحالون عن أهم المراكز العلمية والمدارس التي تلقوا فيها العلم.
3. إن بعض الرحالين كتبوا رحلاتهم بمنهج علمي أدبي سليم وبعض الرحالين كتبوا رحلاتهم بأسلوب غير أدبي وبلغة محلية.
4. أظهرت من الدراسة أن رحلة ابن جبير من أدق الرحلات الحجازية حيث سجل فيها معلومات عن : الموقع والجبال والمناخ والآبار الأبواب والأحوال الاقتصادية والاجتماعية وعادات السكان والاحتفالات وغيرها. واختار فن القصة والحكاية منهجًا وأسلوبا لتعبير مشاعره وعواطفه في رحلته.
5. أرجو من مسئولي إعداد المناهج في الجامعات أو الأقسام اللغة العربية أن تؤخذ المقتطفات من هذه الرحلات، فبعضها تحمل قيماً فكرية ، وخصائص فنية ، وبعضها أسلوباً قصصياً وروائياً. وتستحق هذه الرحلات أن نأخذها كمادة أدبية لطلاب الماجستير والدكتوراه.

الهوامش والمصادر

(1) الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة الدكتوراة، حافظ محمد بادشاه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، وانظرابن بطوطة الرحل والرحالة، أسماء محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ص/ 141.

(2) أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، عبدالله بن أحمد بن حامد آل حمادي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ص/ 127.

(3) الصورة الشعرية في الكتابة النثرية، دكتور صبحي البستاني، دون التاريخ، والناشر، ص/6

(4) الصورة الأدبية، الدكتور مصطفى ناصف، ص/ 265.

(5) الرحلات ، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة. ، ص/ 6

(6) تذكرة بأخبار عن اتفاق الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير، ص/ 9

(7) الناض: الدراهم والدنانير.

(8) المرجع السابق. ص/ 13-14.

(9) أي لا مثيل له

(10) المرجع السابق، ص/ 58

(11) رحلة العبدري، ص/ 383.

(12) سورة البقرة، رقم الآية/ 125

(13) نفس المرجع ، ص/ 370.

(14) ابن بطوطة ورحلته، ص/ 8

(15) نفس المرجع ، ص/ 11

(16) نفس المرجع ، ص/ 57-58.

(17) نفس المرجع ، ص/ 60.

(18) الرحلة الحجازية، ص/ 992.

(19) نفس المرجع ، ص/ 12.

(20) في منزل الوحي، ص/ 148-149.

(21) نفس المرجع ، ص/ 293-294.

(22) نفس المرجع ، ص/ 294.

(23) في منزل الوحي، ص/ 148

(24) أي المقطِّر.

(25) رحلة إلى الحجاز، للمازني، ص/ 20.

(26) نفس المرجع ، ص/ 21